

إشارة الصليب، وراحت تتمشى ببطء في أرجاء الكنيسة، وهي تضمُّ الصبي إلى صدرها، وهي تتفحصُها بإمعانٍ شديدٍ، وبدأت على وجهها أماراتُ الامتعاض والشعور بعدم الثقة. كان نورٌ خفيفٌ يتسرَّب من أحد جوانب الكنيسة. وكانت تتفحص كلَّ شيءٍ حولها، المقاعد، المحراب، الصور، لتتأكد من أن الكنيسة مكان لائق كي تترك الطفل فيه. أما أنا، فكانت أقف على بُعد خطواتٍ منها أراقبُ الباب.

وفجأةً دلفت سيدةً شابةً فارعةً ترتدي ثوباً أحمر، وكان شعرُها أشقرَ كالذهب. جئتُ على ركبتيها، فانحسرت تنورئها الضيقة. ولم تتجاوزُ صلاتها دقيقةً واحدةً. إذ استوت واقفة ورسمت إشارة الصليب على صدرها، وخرجت دون أن تتطلع نحونا. أما زوجتي التي كانت ترمقها فقالت فجأةً: "لا، ... إنها ليست جيدة. إن الناس الذين يؤمنون هذه الكنيسة يأتون بسرعةٍ كهذه الصبية ليمتعو أنفسهم بالتفرج على المحلات، هيا لنذهب من هنا". وهُرعتُ إلى الخارج بسرعة. اجتزنا مسافة لا بأس بها في طريق عودتنا إلى الشارع.

كنا نهرول. زوجتي أمامي وأنا وراءها. ثم دلفنا إلى كنيسةٍ أخرى تقع قرب ساحة فينسيا. كانت هذه الكنيسة أكبر من سابقتها بكثير، والظلام يغشوها، وتملؤها الزينات المذهبة المعلقة في أرجائها. وكانت ثمة علبٌ زجاجيةٌ محشوةٌ بقلوب فضية تلمع وتتألأ في الظلام.

وكان هناك عددٌ من الناس الذين قدَّرتُ بنظرةٍ سريعةٍ أنهم من الميسورين فقدت كانت السيدات يرتدين قبعاتٍ، والرجال متأنقي الملابس. وثمة راهب يلوح بيديه وهو واقفٌ على المنبر يلقي موعظته. كان الجميع واقفين يتطلعون نحوه، وبدأ لي أن ذلك أمراً جيداً لأنه لن